بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة العامة
لسلسلة فصول من تاريخ مصر المعاصر

إن من أكبر الجرائم التي ارتكبها حسني مبارك في حق مصر وشعبها هو عدم الإفراج عن وثائق ثورة ٢٣ يوليو ، وكان السادات قد شكل لجنة " إعادة كتابة تاريخ مصر " في يناير ١٩٧٦ ووضع تحت أيديها جميع وثائق ثورة ٢٣ يوليو وشهادات من بقي حيّاً من صناعها وشهودها ، وعهد برئاستها إلى نائبه حسنى مبارك، ولكن حسني مبارك بعد ثلاث جلسات فقط ترك رئاسة اللجنة وعهد بها إلى الدكتور صبحي عبد الحكيم، أستاذ الجغرافيا، ورئيس مجلس الشورى لاحقاً .

وعندما انتهت اللجنة من أعمالها وقبل إعلان نتائج ما توصلت إليه اغتيل الرئيس السادات وتولى حسني مبارك الرئاسة بعده ليَدْفِن عمل هذه اللجنة ، ويئد جميع الحقائق التي توصَّلت إليها ، بل أوقف الحملة التي استهدفت تصحيح ما شاب تاريخ ثورة ٢٣ يوليو من تزييف وتضليل في الإعلام المصري .

لقد قاومت كثيراً الكتابة عن ثورة ٢٣ يوليو والحقبة الناصرية وكنت أتعلل بكثرة الكتب التي تناولت هذه المرحلة مادحة أو قادحة ، كما كان تركيزي منصبّاً على مشاكل الأمة الآنية والمُلحَّة ، ولكن اكتشفت أن كثيراً من مشكلات الأمة العربية عامة والسياسية خاصة ذات صلة وثيقة بثورة ٢٣ يوليو ورجالها .

يقول سامي شرف : " ومما لا شك فيه أن جمال عبد الناصر الآن ولسوف يظل الشخصية الأولى على المسرح السياسي المصري والعربي وفي العالم الثالث، ولسوف يظل أيضاً لفترة زمنية أخرى قائداً للجماهير وحاملاً للضوء الكاشف لمسيرة هذه الأمة العربية بدليل أنه منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، أي لقرابة الخمسين عاماً،

منها ثلاثون مضت على لقاء ربه وهو باقٍ في ملحمة نضالية مَصْدَراً لإلهام أمَّته . " (١)

وبعض الأنظمة العربية وحركات المقاومة المسلحة تجعل من الشعارات التي تبناها عبد الناصر أساساً لتوجهاتها يظهر هذا في شعاراتهم التي يرفعونها ، أو في قراراتهم يتخذونها ، مثل شعار اللاءات الثلاثة (لا صلح ، ولا اعتراف ، ولا مفاوضات) مع إسرائيل . وإقامة أية علاقة بأمريكا عِمالة ، وأن كل المعاهدات التي وقعها الحكام العرب مع إسرائيل مجحفة يجب نقضها والخروج عليها .

لقد استقر في ذهن هذه الأنظمة وتلك الحركات ، وكثير من عامة الناس أن التجربة الناصرية حققت للأمة العربية كل ما تتمنى دون أن تكبدهم مؤنة التفكير والعمل ، فإذا كانت إسرائيل هي عدوهم الأكبر في العالم ، فإن عبد الناصر كاد أن يرميها في البحر هي ومَن وراءها ، ورفض أية تسوية سلمية معها .

وإذا كانت أمريكا هي العدو اللدود للعرب فإن عبد الناصر هو الذي أذلَّ كبرياءها وحطم آمالها ، وقضى على هيمنتها .

وإذا كان العرب آفتهم الكبرى الفرقة والاختلاف فإن عبد الناصر هو الذي استطاع أن يجعل العرب أمة واحدة وقومية واحدة تحت زعامته .

كل هذه الآراء التي شاعت بين الناس جعلت من جمال عبد الناصر رمزاً للمقاومة العربية ضد الهيمنة الأمريكية، وطغيان إسرائيل حليفتها الاستراتيجية، لذا نجد صورة عبد الناصر مع كل عدوان أمريكي أو إسرائيلي على البلاد العربية تُرفع ، والحناجر باسمه تهتف : لو كان عبد الناصر حيّاً ما كانت أمريكا لتحتل أفغانستان أو العراق، وما كان لإسرائيل أن تُبِيد الفلسطينيين ، وتجتاح لبنان وغزة، وتهدد إيران وسورية، وما كان، وما كان ...

كما أن أيَّ مُقاوِم لإسرائيل يشبه بعبد الناصر، وأي عدو للإمبريالية يقرن به وهناك عديد من الأحزاب الناصرية في مصر وخارجها تتبنى شعاراته وتتمسك بتجربته وأهدافه .

والحقيقة أن المفهوم الشائع عن علاقة عبد الناصر بالغرب وخاصة أمريكا وعلاقته بإسرائيل ليس فقط مخالفاً للحقيقة والتاريخ وإساءة للتجربة الناصرية بإظهار عبد

---

(1) سامي شرف " سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر " مقدمة الكتاب .

الناصر في شكل الطاغية الغاشم أو هتلر النازي – كما يصفه أعداؤه من الغرب – إنما أيضاً فيه إساءة لفهم حقيقة الصراع العربيِّ / الغربيِّ مما يؤثر سلباً على حسن اختيار السياسة الرشيدة التي يجب أن يتبعها العرب ليحققوا بها أهدافهم بعد سلسلة طويلة من التخبط الفكري ، والتمزق النفسي ، والتخلف الحضاري ، والهزائم العسكرية .

ولو أن التجربة الناصرية بصفة خاصة وتاريخ الصراع العربيِّ / الغربيِّ بصفة عامة قد دُرِست دراسةً سياسيةً موضوعية ما تكررت أخطاء الماضي وما ظهرت تلك الزعامات العربية التي تسببت فيما نحن فيه من ذلٍّ وهوان ، وفرقة وانقسام .

ومنهج البحث في هذه السلسة يعتمد على إيراد حقائق الأحداث كما نصَّت عليها الوثائق الرسميَّة ، والأخبار الصحيحة التي رواها شهود العيان ، والأخبار التي نُشِرت في الكتب والصحف والمجلات عملاً بقول الفيلسوف الروماني " سينيكا " : " لا تقل لي شيئاً ولكن دعني أرى " .

وبعد عرض شريط الأحداث الحقيقية التي تُمَكِّن القارئ من معرفة حقيقة ما حدث أجتهد في تطبيق مبادئ علم السياسة ، وإدارة الأزمات على تلك الأحداث ، ثم أذكر أراء الساسة والمفكرين والكتَّاب التي تدعم هذه الآراء ، وأخيراً أقوم بالتعليق على الأحداث واستخلاص العبرة التي آمل أن تفيدنا في فهم الحاضر ، وتعيننا على اتخاذ القرار الصحيح في المستقبل .

وأخيرًا أُذَكِّر القارئ العزيز أن الأمم التي تقدَّمت ناقشت تاريخها مناقشة علمية ، وبأكبر قدر من الحيادية ، وجنبت تأثير العواطف الهوجاء والثارات الشخصية ، والمصالح الذاتية في الحكم على الأحداث والأشخاص ، حتى تأخذ من ماضيها لحاضرها ومستقبلها ، ومن أخطائها ما يجنبها الوقوع فيها ثانية .

يقول فاروق جويدة : " ينبغي أن نتعامل مع تاريخ ثورة يوليو على أساس أنه تاريخ مصر وليس تاريخ عبد الناصر أو السادات أو محمد نجيب أو سعد زغلول أو النحاس . إن تنقية الكتابة التاريخية من الأهواء والأغراض والمصالح هي نقطة البداية ؛ لأن المؤرخ راهب يجب أن يتخلص من كل غبار النزوات والشطط والرؤى الضيقة، ويهب نفسه لقيمة اسمها الحقيقة وهي أساس الكتابة التاريخية. " [1]

([1]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٧٥ .

ومقياس شخصية الوطني المخلص لا تتضح تمام الوضوح إلا إذا حدد المعيار السليم لقوة ضبط النفس في تطبيق المبادئ والأهداف والمُثل والحرص على تحقيق مصلحة الأمة ، وليس الانتصار لشخص على حساب مصلحة الوطن ، وأن التقيد بالمُثُل يعني ضمان عدم تأثر المبادئ والأهداف بشخصيات الزعماء، أو بالهوى ، أو بالمصلحة الشخصية .

وعبد الناصر نفسه رفض أول عهده بالحكم الهتافَ باسمه ودعا للتمسك بالمبادئ والمثل العليا .

يقول عبد الناصر في خطابه يوم حادث المنشية : " لا يريد جمال مطلقاً أن تهتفوا باسمه، إننا نريد أن نعمل لنبنى هذا الوطن بناءً حراً سليماً أبيّاً، ولم يُبْنَ هذا الوطن في الماضي بالهتاف ، وإن الهتاف لجمال لن يبني هذا الوطن ، ولكنَّا يا إخواني سنتقدم وسنعمل.. سنعمل للمبادئ.. وسنعمل للمبادئ ، وسنعمل للمثل العليا؛ بهذا سنبنى هذا الوطن . فلن تكون حياة مصر معلقة بحياة جمال عبد الناصر، ولكنها معلقة بكم أنتم وبشجاعتكم وبكفاحكم، فكافحوا، وإذا مات جمال عبد الناصر فليكن كل منكم جمال عبد الناصر.. فليكن كل منكم جمال عبد الناصر متمسكاً بالمبادئ ومتمسكاً بالمثل العليا. " [1]

إن العقل المستنير يرفض الوصاية عليه ، ولا يسلِّم بشيء تسليماً أعمى إنما هو مستعدٌّ دائماً للتأمل ، ومتحفزٌ أبداً لاتخاذ القرار الأخلاقي الحر ، وآمل في هذا السلسلة من الكتب تيسير كثير من الحقائق التاريخية التي حُجبت بسبب عمليات غسيل المخ التي مورست على الشعب المصري لسنوات طوال والتي قامت بها آلة الإعلام الجبارة فيكفي أن يتكلم الزعيم السياسي مرة واحدة وسط مظاهرة نظمت تنظيماً إيجابيّاً لكي تبدأ عملية التكرار والنشر السريع حتى تصل إلى آذان مئات الملايين من الناس عدة مرات في اليوم الواحد ، وحتى تفرض عليهم عدة مرات في وسائل الإعلام ، فلا يفلت من أثر الدعاية أي جانب يعتد به .

والشعوب المتحضرة استطاعت أن تستبدل بعبادة الأشخاص تقديس المبادئ، والكفر بالزعماء الذين أهدروها ، وأيقنَتْ أن لكل زمان رجاله ، ولكل مرحلة قراراتها

([1]) من خطاب جمال عبد الناصر يوم حادث المنشية ١٩٥٤/١٠/٢٦ .

فما كان مطلوباً في وقت النضال من أجل الحرية ربما صار مرفوضاً في المراحل التالية مراحل الاستقرار والإصلاح والبناء .

والشعوب العربية وقد استردت حرياتها بعد الربيع العربي تستطيع أن تفرق بين الزعيم المتجرد المخلص وبين الزعيم الذي يخفي وراء المبادئ شهوة السلطان والطموح الذي لا حد له في السيطرة والتملك .

إن الشعوب العربية بعد أن ثارت في وجه حكامها الطغاة تريد حكاماً تقاوم الاتجاه الغريزي للاستبداد لكي تناصر مصلحة أممها ، وتصارع الشهوات الخاصة لتخضعها لمصلحة شعوبها ، وتكافح الانحراف عن هذا النهج ، وتعمل على القضاء على محاباة الحاكم للمصالح الشخصية ، وتصارع استغلال السلطة للمصلحة الشخصية على حساب ثروة الوطن ومستقبله .

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب ﴾

صدق الله العظيم

***

مقدمة الكتاب

معظم الكتب التي كُتبت عن ثورة يوليو تبدأ بذكر حال مصر قبل الثورة ، وعوامل نشأة تنظيم الضباط الأحرار، وليلة ٢٣ يوليو وبيان الثورة الأول وخروج الملك فاروق، ثم تتحدث بإيجاز شديد، ربما لقلة المصادر والمعلومات، عن الإجراءات التي قامت بها الثورة مثل حل الأحزاب ، وإسقاط دستور ٢٣ ، وتأجيل الانتخابات، وتعطيل البرلمان، وإعلان الجمهورية، ومفاوضات الجلاء، ولا تذكر هذه الكتب كيف اتخذت هذه الإجراءات ؟ ومن كان وراءها ؟ ويعجب القارئ العزيز عندما يعلم أن أكثر هذه الإجراءات لم يكن رجال الثورة مسئولين عنها وربما كانوا معارضين لها ، إنما الذي اتخذها رجال مدنيون استعان بهم رجال الثورة لحكم البلاد مثل : علي ماهر ، وسليمان حافظ وعبد الرزاق السنهوري .

ولا تذكر هذه الكتب كيف طمع الضباط في الحكم واستولوا عليه وكان هذا آخر شيء يخطر ببالهم ؟ ولا تذكر شيئاً عن كواليس وزارة محمد نجيب وأهم منجزاتها، وكيف خطط عبد الناصر للوصول للحكم وإقصاء كل المنافسين له؟ وتفاصيل كثيرة تمت في العامين التاليين للثورة حتى تربع عبد الناصر على عرش مصر، وهذا الكتاب هو الكتاب الثاني من سلسلة " دروس تاريخية من أجل رؤية مستقبلية للسياسة المصرية " تحدثنا في الكتاب الأول من هذه السلسة عن النشأة الأولى لتنظيم الضباط الأحرار والأحداث التي شهدتها مصر حتى قيام الثورة ونجاحها ، وفي هذا الكتاب نكشف تفاصيل ما جرى في العامين الأولين للثورة ، هذا العامان اللذان يكتنفهما كثير من الغموض والخلط والأسرار .

محمد يونس هاشم

***